رايتشِل لُفغْرِن

# في مواجهة التّحدِّيات

# ١

# عواصف وظِلال

هَتفتُ لِأُختي الصَّغيرة التي بدأت تمشي حديثًا: «لينا! نحنُ عُصفورتانِ، ونحنُ نطير!» وقد هبَّ نَسيمُ أيَّارَ اللطيفُ في أنحاء قرية هارتفِل بولاية أُوهايو، مُداعِبًا شعري الأشعث وأنا أدورُ في حلقات واسعة. مددتُ ذِراعيَّ، فدارت تَنُّورتي حول كاحِليَّ العاريَين. ومدَّت لينا ذِراعَيها المُكتَنِزتَين لِتُقلِّدَني، فتَمايلَت على رِجلَينِ مُتَقلقِلتَين. فضحِكتُ وقهقهَتْ.

بعدَ لحظةٍ أردفتُ: «لينا، العصافيرُ تُغَنِّي. علَينا نحن أيضًا أن نُغَنِّي.» وانفجَرتُ في أُغنية بهيجة نُظِمَت في ذِهني البالغِ ثلاثَ سِنين، جاعلةً لينا تُقَهقِه من جديد. وقد رَفرفَت ذِراعاي ورقصَت قدَماي الصَّغيرتان فكِدتُ أُحِسُّ أنَّني أطيرُ فِعلاً!

انتهى تمثيلي لمَّا سمِعتُ أُختي الكُبرى تُنادي: «حانَ وقتُ الغَداء، قِيرا. تقولُ تاتا أن تُحضِري لينا وتغتَسِلا. بِسُرعة!» فالتَفتُّ إلى لينا، ورفعتُها إلى عرَبَتِنا الحمراء الصَّغيرة. وقلتُ لها: «رُبَّما نتناوَلُ شَورَبة. تاتا تطبُخ شَورَبة طيِّبة.»

قالت لينا مُوافِقةً: «جَوعانة، شَورَبة طيِّبة.» كانت تقريبًا ابنةَ سنةٍ ونصف، وما زالت لا تستطيعُ أن تتكلَّم جيِّدًا جدًّا، ولكنَّنا دائمًا فَهِمنا إحدانا كلامَ الأُخرى. حتَّى عندما نتخانق، كُنَّا نتفاهم.

«تقولُ تاتا أن نُعجِّل.» وانعطفتُ نحوَ البيت، لاهثةً من جَهدِ جرِّ العرَبة.

وجدنا تاتا في الداخل تتحرَّك بنشاطٍ في المطبخ كالعادة. كانت أُختي رُوث ابنةُ الخمس سِنين تُساعِدُ طائعةً في وضع الطَّعام، واستطعتُ أن أسمع صوت أُمِّي من مكانٍ ما في البيت قائلًا لأخي ليون إنَّ وقتَ الغداء قد حان. كان ليون أصغر منِّي قليلًا وأكبر من لينا قليلًا. وقد هُرِعتُ لمساعدة لينا في غَسلِ يدَيها المُكتَنِزتَين، قبلَ أن أزِلَّ إلى مكاني المُعتاد على أحَدِ البُنوك الطَّويلة.

بكُلِّ تأكيد، كانت تاتا قد طبَخَت شَورَبة. وكنتُ جَوعانةً جدًّا حتَّى لم أتمالك عنِ اختلاس النَّظر قليلًا في أثناء صلاتنا الصامتة، لِأُشاهِدَ البُخارَ يتصاعَدُ رقيقًا من الطَّنجرة. وما إن قالَ بابا «آمين!» حتَّى أخذتُ رشفةً ضئيلةً من المَرَق بِملعَقتي. ياي! ما أطيبَها! ولكنْ ما لبِثَت أُذُناي أنِ ارتفعَتا بِسُرعة لمَّا سمعتُ ماما تقولُ شيئًا ما لِبابا، وبقِيَت مِلعقَتي مُعلَّقةً في الهواء إلى حين.

كانت ماما تقول: «ينبغي لي أن أذهب إلى البلدة عصرَ اليوم.» وإذ أنزلت مِلعقَتي مُحدِثةً قَعقعةً، تَهزهَزتُ على مقعدي بِتَحمُّس. إذا كانت ماما ذاهبةً لإحضار البقالة، فرُبَّما تأخذني معها! ونظرتُ عبْرَ الطَّاولة إلى لينا، فإذا بها مُنهَمِكةٌ في تَناوُل شَوربَتِها والمَرَقُ يتقطَّرُ على ذقنها. ستكونُ لينا أصغَرَ من أن تذهب إلى البلدة. أمَّا أنا، فلا. لقد كنتُ بِنتًا كبيرة. وهذه الفِكرةُ بذاتها جعلَت عينيَّ البُنَيَّتين ترتَقِصانِ ابتهاجًا. لقد عَلِمتُ تمامًا أنَّ ماما ستَصطَحِبُني!

لمَّا استعدَّت ماما للذَّهاب عصرَ ذلك اليوم، لَحِقتُ بها إلى الخارج. «ماما، هل لي أن أذهبَ معَكِ؟» وقد وقفتُ مُتلهِّفةً على رؤوس أصابعِ قدميَّ، مُنتظِرةً ما كنتُ على يقينٍ بأنَّه سيكون جوابها.

«ليسَ هذه المرَّة، ڤيرا. يُمكِنُكِ أن تبقَي في البيت وتلعبي مع ليون ولينا. ستَقضونَ وقتًا مُمتِعًا.» وانحَنَت لكي تُقبِّلَني سريعًا، فمَسَّ شريطا قَلَنسُوتها النِّسائيَّة جانِبَ وجهي.

واحتَججتُ بسُرعةٍ مُتوسِّلةً: «ولكنْ، ماما. رجاءً؟ أُريد أن أذهب معكِ!»

فجاءَ جوابُ ماما لطيفًا، لكنْ حازمًا: «لا، حبيبتي. ليس اليوم. اذهبي والعبي، وأحسِني التَّصرُّفَ مع تاتا.» وإذ قالت ذلك، دارت وركِبَت في السيَّارة.

علمتُ عندئذٍ أنَّ ماما كانت جادَّة. فكُلُّ توسُّلاتي ومُناشَداتي ستكونُ عبَثًا. ولكنَّني عقدتُ عزمي على الذَّهاب، وعندما أعقِدُ عزمي على أمرٍ ما لا أستسلِمُ بِسُهولة. وفجأةً عرَفتُ ما سأفعلُه.

انزلقتُ خُفيةً إلى مُقدَّم السَّيَّارة، وغرَزتُ نفسي بلِزقِ المِصَدِّ. إذا كانت أُمِّي تأبى أن تأخُذَني معها، فلَن أدَعَها تذهَبَ أبدًا. غرزتُ قدَميَّ الحافيتَين بثبات، وبذلتُ قُوَّتي الضئيلة ضِدَّ ذلك المِصَدِّ المَعدِنيِّ الكبير، مُتحدِّيةً إيَّاهُ أن يُزَحزِحَني. وبِكُلِّ التَّصميم الذي حواهُ ذِهني الصَّغيرُ في تلك اللَّحظة، كنتُ على يقينٍ بأنَّ المِصَدَّ لن يُزَحزِحَني. لقد حمَلَت سيَّارتُنا الفُورد دائمًا ذِكرياتٍ سعيدةً عن تلبية رغَباتي، ولكنَّها آنَذاك كانت عدوَّتي.

سمِعتُ المُحرِّكَ يدورُ هادِرًا، وشعرتُ به نابضًا عبْرَ السَّيَّارة. وإذ وضعَت أُمِّي ناقِلَ الحركة في نُقطة الانطلاق وبدأت تتقدَّم، ضاعفتُ الدَّفع. ثُمَّ زلَّت قدَماي فجأةً. وقبلَ أن يُتاح لي وقتٌ لِأصرُخ، كان نِصفُ جسمي تحت السَّيَّارة وباتَ سَوادُ العَجَلةِ الهائلُ فوقي. خبطة... صُراخ... زعيق. كان كلُّ شيءٍ غَمامةً مُشوَّشة من الضَّجيج والألم.

أحسَستُ يدَي بابا القويَّتَين ترفعانِني وتوقَّفتُ عنِ الصُّراخ. «أهيَ بخير، ڤكتور؟ آه، الدَّم! لم أرَها. آه، ڤيرا، طِفلَتي!» وقد كانت ماما تبكي.

بحرَكة رشيقة من يَدِ بابا، ردَّ القِطعةَ المسلوخةَ من فروَة رأسي إلى مكانها. «الجُمجُمة مكشوفة والدَّمُ كثيرٌ جدًّا. الأمرُ رديء، إمَّا، ولكنَّها حيَّة. افتحي لي بابَ السيَّارة. علينا نقلُها إلى المُستشفى حالًا.»

ذُقتُ دمًا على لساني. وأحسستُ بابا يضعُني برِفق، لكنْ بسُرعة، على مقعد الفُورد الخلفيِّ. لقد حالَ الألَمُ دونَ تركيزي على أيِّ شيء. «أنا مَوجوعة!» وقد كنتُ أبكي مُتنهِّدةً.

ثُمَّ شعرتُ بذِراعَينِ حانيتَين تُطوِّقانِني عن كثَب، فعَلِمتُ أنَّني في حضن ماما. وقد أراحَتني لمسَتُها وهدَّأتني.

كان صوتُها مُسَكِّنًا، لكنْ مُتوتِّرًا. «لا بأس، ڤيرا. ماما هُنا. اشْش...» وبين تَهدئتي تكرارًا، صلَّت بِهَمسات وتوسَّلَت إلى بابا أن يسوقَ أسرَع.

كان صوتُ بابا العميقُ مُطَمئنًا. «إمَّا، سنَصِلُ إلى هُناكَ عاجلًا الآن. لا بأس.» كان يَسوقُ أسرعَ بكثيرٍ من المُعتاد. وقد عرَفتُ ذلك من طريقة توقُّف السَّيَّارة مُنزَلِقةً عند كُلِّ تَقاطُع. إذ كانت تَرتجُّ بسُرعة وشِدَّة كُلَّما داس المَكابِح. وقد جعَلَ الارتجاجُ وجَعي أسوأ، ولم أتمكَّن من الكَفِّ عن البُكاء.

في المُستشفى، حمَلَني بابا إلى الدَّاخل. وعلى ذِراعيه، بطريقةٍ ما، لم يكُنِ الشُّعورُ بالألم شديدًا كما كان. فلمَّا وضعَني على النَّقَّالة، عادَت حِدَّةُ الألَم ومعَها الخوف. ماذا

سيَفعلون لي؟ هل يحقنونَني بالإبَر؟ ثُمَّ قال الطبيبُ بهدوء مُطَمئنًا: «ڤيرا، سنُعالِجُكِ.» فاستلقيتُ ساكنةً جدًّا، وبكَيت.

قطَّبوني وصرفوني إلى البيت، وعِمامةٌ بيضاءُ ملفوفةٌ حولَ رأسي. وقد حملَتني ماما طولَ الطَّريق إلى البيت. إنَّ الجُرحَ المُقطَّب البالِغَ طُولُه ثلاثين سنتيمِترًا سيترُكُ نَدَبًا بطولِ قَدَمٍ واحدة على جانب رأسي. وقد بقِيتُ مُعتَمِرةً العِمامةَ باقيَ الصَّيف. ومع أنَّ الحادِثَ كان صادمًا وراضًّا بِما يكفي، لم يعلم أحدٌ منَّا أنَّ ما سيأتي بعد ثلاثة أشهُر سيُلقي ظِلَّه عليه.

في ساعاتِ الفَجر الباكرة من يومِ جُمعة شديد الحَرِّ في شهرِ آب، استَيقظتُ باكيةً. فانزَلقتُ من السَّرير بِمَنامتي البيضاء الطَّويلة، ومشَيتُ بِخُطًى سريعة وخفيفة على ألواح الأرضيَّة الخشبيَّة الصَّارَّة إلى غُرفَةِ نومِ والِدَيَّ. قُلتُ بإلحاحٍ ونبَراتٍ مُهاجة: «ماما!» وإذ وقفتُ في بابِهما، انتظرتُ حتَّى تستَيقِظَ ماما، عالِمةً أنَّها تفعَلُ ذلك دائمًا عندما أحتاجُ إليها.

«نعم، ڤيرا؟» وانسلَّت من السَّرير، ثُمَّ انحنَت لي كي أُقبِلَ إلَيها. وسألَت همسًا: «ما خَطبُكِ، يا صغيرتي؟» وكان بابا ما يزالُ نائمًا.

«ماما، رأسي يَوجَعُني.»

مسَّت جبيني بيدها النَّاعمة الباردة. «يا إلهي، أنتِ محرورة! تعالَي، ماما ستُساعِدُكِ.»

وإذِ اقتادَتني إلى حُجرة الجلوس، أنامَتني على الأريكة، وذهبَت لِتُحضِرَ خِرقةً باردة. «خُذي، تناوَلي هذا!» وقد عادت بِمِلعَقة وقِنِّينة دواء الحُمَّى التي استعملناها للطِّفلة لينا لمَّا كانت أسنانُها تطلع. ففتحتُ فمي وتناولتُ السائل، مُكشِّرةً حِيالَ حلاوتِهِ المُغثية ومَذاقِهِ المُرِّ تاليًا. وقد آلَمَني البَلعُ وشعرتُ بالخُشونة الكثيفة في حَنجَرتي.

«ماما، رقَبَتي تَوجَعُني.»

قعَدَت بجانبي ومسَّدَت شعري رجُوعًا عن جبيني. «اشْش، ڤيرا، ماما هُنا معكِ تمامًا، وستَتحسَّنين عاجلاً. ما عليكِ إلَّا أن تستريحي الآن.» ثُمَّ بلَّلَت وجهي السَّاخِنَ ويدَيَّ الحارَّتَين ورنَّمَت لي برِقَّةٍ باللُّغة الألمانيَّة. وبعدَ حينٍ غَطغطَ عليَّ نومٌ مُضطَرِب. ثُمَّ استيقظتُ لأجِدَ ماما قد ذهبَت ونُورَ الشَّمسِ الصَّباحيَّ الباكر مُتدفِّقًا عبْرَ النَّافذة.

كان بابا قد رجَعَ توًّا من حَلْب البَقَرات. واستطعتُ أن أسمعَهُ مُناديًا باقيَ الأولاد كي ينهضوا لِتناوُل الفَطور. فإذا نِمنا إلى وقتٍ مُتأخِّرٍ جدًّا، نُعاني العواقِبَ الوخيمة بِسَحبِنا من السَّرير بأقدامنا. وقد كفى اختبارٌ كهذا عادةً لِتَعليمِ أيِّ نَعسانٍ أن ينهض متى نَدَهَنا صوتُ بابانا الهادِرُ إلى مُباشَرة النَّهار.

استطعتُ أن أشُمَّ القهوة وأسمعَ نشيشَ قَديدِ اللَّحم في المِقلاة، مُختَلِطًا بصوتَي تاتا وماما النَّاعِمَين وهُما تُعِدَّان الفَطورَ معًا في المطبخ. وحاولتُ أن أُديرَ رأسي لمَّا دخلَ بابا حُجرةَ الجلوس بعدَ حين. وإذ صرختُ عاليًا، أغمضتُ عينيَّ بإحكامٍ حِيالَ الألَم. كانت رقَبَتي مُتصلِّبة، ودقَّ رأسي بشِدَّة. تجمَّع الدَّمعُ في عينَيَّ لمَّا انحنى أبي فوقي.

«ما خَطبُكِ، ڤيرا؟ قالَت لي ماما إنَّكِ لم تكوني تشعُرينَ بِتَمامِ الصِّحَّة هذا الصَّباح.»

لم يَكَد صوتي يعلو عنِ الهَمْس: «رأسي يَوجَعُني، يَوجَعُني عندما أُحرِّكُه.»

«هَمْم...» اتَّسمَت نبَراتُه بالتَّفكير والتَّفهُّم. «هل تُريدينَ شيئًا تأكُلينَه؟»

فهزَزتُ رأسي بعضَ الشيء.

«طيِّب. إذًا استريحي فحسْب.» وربَّت كتِفي برِفق ثُمَّ غادَرَ الغُرفة.

مضى الصَّباحُ مُتطاوِلاً. وبعدَ غَسلِ صُحونِ الفَطور، أحضَرت لي ماما شُربةَ ماءٍ باردة. ولكنَّ البَلعَ آلَمَني، ورفضتُ أكثرَ من بضع رشَفات.

قالت ماما قَلِقةً: «ڤيرا، عليكِ أن تشربي شيئًا ما. لَدَيكِ حُمَّى. هيَّا، جرِّبي مزيدًا من الرَّشَفات.»

فبكَيتُ وأبَيت. وتوسَّلتُ: «ماما، احمليني.» فوضعتني في حِضنها وهزهزَتْني. فأراحَني ذلك، وغَفَوتُ وصحَوتُ بالتَّناوُب. وعندَ الغداء أيضًا، رفضتُ الطَّعام. ولمَّا جاء بابا لِيَراني قبلَ مُغادرة البيت بعدَ الأكل، مضى والقلَقُ بادٍ عليه. «أظنُّ أنَّني سأتَّصل بالدُّكتور ريم وأرى هل يقدِرُ أن يُعرِّج علَينا في زيارةٍ عصرَ اليوم.» هكذا سمعتُه يقولُ لِماما وهو مُنصَرِف.

لمَّا جاء الدُّكتور ريم حاملًا الحقيبة السَّوداء التي كان يستَعمِلُها في الزِّيارات البيتيَّة، أخَذَ حرارتي وتسمَّع لقلبي ورئتَيَّ. وبعدَ إكمال فَحصِهِ لي، بدا رزينًا. وقد ترَكَ لدى ماما دواءً «لإنزال الحرارة»، كما قال. وكانت كلماتُه عندَ المُغادرة: «إن لم تنزِلْ حرارتُها أو لاقت صعوبةً في التَّنفُّس، فلا تتردَّدوا في أخذِها إلى المُستشفى.»

تطاوَلَ العَصرُ وحلَّ المساء، فوَجِعَني جِسمي كلُّه بِشَكلٍ يُرثى له. دقَّ رأسي بشِدَّة، وتحوَّلَ بُكائي إلى أنَّاتٍ واهِيَة. لقد كنتُ أكثَرَ تعَبًا من أن أبكيَ فِعلًا.

«ماما؟»

«نعَم، صغيرتي؟» ولاقت عينا ماما الرَّقيقتان عينيَّ برِفق.

«ماما، هل أتحسَّنُ عاجلًا؟»

«أُصلِّي لأجلِ ذلك، ڤيرا. إنَّما اهدإي واستريحي.»

امتدَّت ظِلالُ المساء على تِلال أُوهايو حينَ أتت خطواتُ بابا الواسعةُ به من الحظيرة. «هل من تحسُّن؟» وكان صوتُهُ أهدأ من المُعتاد.

رأيتُ ماما تهزُّ رأسها نَفيًا، واستطعتُ أن أرى القلَقَ في عينَيها وقد كان صوتُها هادئًا بالمِثل. «أخشى أن تكون حالُها أسوأ، يا ڤِك. أطرافُها مُتَصلِّبة.»

«كيف حرارتُها؟» وأقبَلَ نحوي، ناظِرًا إليَّ من عَلُ باهتمامٍ جِدِّيٍّ.

ضغطَت ماما يدَها على جبيني. «ما زالت مُرتَفِعة.»

«أينَ أنتِ مَوجوعة، ڤيرا؟» وقدِ انحَنى فوقي جَزِعًا. فما كانَ منِّي إلَّا الأنينُ ردًّا، فذهبَ لِيَتَّصل بالطَّبيب. ولمَّا رجَعَ بعدَ لَحَظات، كانَ سريعَ الخُطى وكئيبَ الوجه. «علينا أن نأخُذَها إلى المُستشفى في الحال.» ثُمَّ انحنى وحمَلَني على ذِراعَيه القويَّتَين. وإذِ التفتَ إلى جدَّتي، سألها: «هل تستطيعينَ أن تبقَي مع الأولاد، أُمَّاه؟»

فقالت تاتا: «طبعًا، ڤِكتور!»

وإذِ استعادَت ماما قَلَنسُوتَها عنِ العلَّاقة، وضَعَتها على رأسها وودَّعَت الأولادَ الباقين قبلَ التَّوجُّه للخروج من الباب مع بابا ومعي.

وقَفَ أخي افْرَد ابنُ الأربَعِ سِنين مُستَجِيبًا في مدخل الباب. «باي، ڤيرا!»

قلتُ بِصَوتٍ صارٍّ: «باي!» وقد وَجِعَني حَلقي جدًّا بحَيثُ لم يخرُجِ الكلامُ صحيحًا.

«أحسِنِ التَّصرُّفَ مع تاتا، بُنَيَّ.» كانت كلِماتُ بابا حازِمة، وما كان منِ افْرَد إلَّا أن أومأ برأسهِ مُوافِقًا. وقد أغمضتُ عينَيَّ وانتظرتُ، مُنجَرِفةً داخِلَ غَمامَةِ ألَمي وخارِجَها.

في مُستشفى أَولطمان بمدينة كانتُن، في ولاية أُوهايو، ألفَيتُ نفسي تحت الأنوار السَّاطعة في غُرفةِ الطَّوارئ، تُحيطُ بي أقدامٌ سريعةُ الحرَكة وأصواتٌ مخفوضة. كان

الأطبَّاءُ والمُمرِّضاتُ لُطَفاء، ولكنَّ الإبَرَ والحرَكةَ والأضواء في أثناء الفحص آلَمَتني. لقد فَزِعتُ وأحسَستُ السُّخونةَ والبُرودةَ بالتَّناوُب. ولمَّا رأتني مُمرِّضةٌ أرتَجِف، غطَّتني بِبَطانيَّةٍ مُدفِئة. فكَنكَنتُ عميقًا وأغمضتُ عينَيَّ بإحكام، مُحاوِلةً أن أنجوَ من الوجَع.

ثُمَّ دخَلَ الطَّبيب، فرُفِعَ عنِّي الغِطاء وقُلِبتُ على جَنبي. لقد دفعوا رِجليَّ المُتصَلِّبَتَين صعودًا ورأسي إلى الأمام في وضعٍ جَنينيٍّ، فصرَختُ من الألَمِ الشَّديد. وقالت لي المُمرِّضةُ مُهدِّئةً وهي تُمسِّدُ شعري: «مهلًا حبيبتي. سيَدومُ هذا مُجرَّدَ لُحَيظات.» حاولتُ أن أُقاوِمَ الوضْعَ المؤلِمَ، ولكنَّ مُمرِّضةً أُخرى ثبَّتَتني في مكاني. فأَحسستُ وجَعًا حارقًا في ظهري، وتقطَّرَتِ الدُّموع على وجهي، وقلتُ آنَّةً: «ماما.»

«اشْش، حبيبَتي. يُمكِنُكِ أن ترَي ماماكِ عاجلًا. إنَّما ابقَي ساكنةً وكُوني فتاةً صالحة.»

بدَت تِلكَ الدَّقائقُ العَشرُ وقتًا طويلًا جدًّا. ولمَّا انتهى البَزلُ القَطَنيُّ أخيرًا، وباتَ في وُسعي أن أستلقيَ كالمُعتاد والأغطِيةُ مشدودةٌ فوقي، كانت الدُّموعُ ما تزالُ تَسيلُ على خدَّيَّ. فمسحَت لي المُمرِّضةُ الدُّموعَ عن وجهي وأحكمَت تغطِيَتي بِالبَطَّانيَّة. «انتهى الأمر، عزيزتي. لكِ الآنَ أن تستريحي.»

ما سَمِعتُ قطُّ الكَلِماتِ المشؤومةَ التي قالها الطَّبيبُ لِوالدَيَّ. ولكنْ في غُرفةٍ أُخرى كان الطَّبيبُ يُعلِمُهما بجِدِّيَّة أنَّني بحاجة لأنْ أُدخَلَ إلى المُستشفى في الحال.

«أنا آسِفٌ جدًّا. لقد جاءت نتيجةُ البَزلِ إيجابيَّة بوجود شلَلِ أطفال. سنَجعَلُها مُستريحةً بقدْر الإمكان. ولكنَّني أخشى أن يكونَ علينا تَولِّي أمرِ إصابةٍ وبائيَّة.» كانت تِلكَ سنة ١٩٥٢، وكانَ شلَلُ الأطفال مُستَشرِيًا في أنحاءِ البَلَد. وقد هزَّ الطَّبيبُ رأسَه بِأسًى. وبعدَ طمأنَتِهما بأنَّه سيَعملُ كلَّ ما في وُسعه لأجلي، تركَهُما لِيَتقبَّلا الخبَرَ وحدَهُما.

في تلك الأثناء، كُنتُ أُدفَعُ على نقَّالة مُدَولَبة صُعودًا إلى الطَّابق الخامِس من المُستشفى. وهُنا في المَشمَس، انضمَمتُ إلى مرضى آخرين في جَناح شلَل الأطفال شِبهِ المعزول. وقد فحصَتني مُمرِّضةٌ باشَّةٌ رشيقة في الحال.

«مرحبًا، ما اسمُكِ، يا صغيرة؟»

كانَت عَيناها الباسمتان لطيفتَين ويداها مُتَرفِّقتَين. وقد بدا أنَّها أحسَّت كم كُنتُ خائفة. فقُلتُ بصوتٍ صارٍّ: «فيرا.»

«اسمٌ جميل، عزيزتي. افتَحي لي فمَكِ، لو سمَحتِ!» ثُمَّ دسَّت ميزانَ حرارة تحت لساني، وأمسكَت يدي قليلًا بينَ أصابعِها الدَّافئة رَيثما أخذَت نَبْضي. كانت كفِيَّة بشكل واضح. ولكنْ هَيمَنَ عيلها حَنانٌ مُريحٌ أيضًا. «ڤيرا، اسمي مِسز غاسطُن، وسأتولَّى الاعتِناءَ بكِ في أثناء المُدَّة القصيرة التَّالية. ما عليكِ إلَّا أن تستلقي ساكِنةً الآن وتستريحي وتتحسَّني عاجلًا بالفِعل.» وأعطَتني إحدى ابتِساماتها الرَّقيقة قبلَ أن تدورَ وتمضِيَ بنشاط.

فعلتُ كما قِيلَ لي واستلقَيتُ ساكنةً. لم يكُن هُناك أيُّ شيءٍ آخر أستطيع أن أعملَه. فالآنَ باتَ كامِلُ جِذعي وذِراعيَّ مشلولة. إنَّما رقَبَتي وساقايَ فقط كانت تتحرَّك جُزئيًّا. «ماما!» صرختُ مُناديةً التَّعزيةَ الوحيدة التي أعرِفُها لمَّا باتَ تنفُّسي عسيرًا.

عادَت المُمرِّضاتُ سريعًا، ولَفَفنَ بطني وذِراعَيَّ بخِرَق صُوف ساخنة لإراحة عضلاتي المُتَصلِّبة. فأحسَستُ أنِّي وحدي بصورةٍ مُوئسة، وتوسَّلتُ: «ماما!»

تكَّتِ الدَّقائقُ مُوَلِّيةً، وباتَ تنفُّسي خَشِنًا. وإذ كافحتُ لأَخْذِ النَّفس عبْرَ غَمامةٍ من الألم، سَمِعتُ صوتَ الدُّكتور ريم. وقد بدا الصَّوتُ آتيًا من مكانٍ بعيد. «إنَّها تتنفَّسُ بِعَضَلاتها البَطنيَّة الآنَ بدلًا من عضلات صَدرِها. ينبغي أن ننقُلَها إلى آلةِ التَّنفُّس الاصطِناعيِّ.»

شعرتُ بجِسمي المُتصلِّب المُتخشِّب يُرفع. ثُمَّ مدَّدوني على سرير داخِلَ أُسطوانةٍ معدنيّةٍ مُكيَّفَةِ الضَّغط، وعدَّلوا الرَّغوةَ المطَّاطيَّة حولَ رقَبَتي. وقد برَزَ رأسي خارِجَ طرَفَ ذلك الأُنبوب المَعدِنيِّ الكبير، فيما اختفى جِسمي داخِلَه. ثُمَّ أغلقوا الفتحاتِ الجانبيَّةَ وشغَّلوا الآلة. وفجأةً شعرتُ كأنَّني أستطيعُ التَّنفُّسَ من جديد. لقد كنتُ مُرهَقةً جدًّا حتَّى أغمضتُ عينيَّ.

ثُمَّ وجدتُها بِقُربي. تَمتَمَت بِاسْمي برِقَّة: «ڤيرا،» فتحتُ عينيَّ بعدَ جَهد.

قلتُ مُتَلعثِمةً بِضَعف: «ماما.» وملَّسَتْ لي شعري.

ثُمَّ أحسَستُ يدًا أُخرى تَمَسُّ وجهي، كانت يدَ بابا التي خشَّنها العمَل. «ڤيرا، نحنُ هُنا.»

رفعتُ نظَري لأري عينَي كِلَيهما مُغرَورِقتَين. ولم أعلم أنَّ الطَّبيبَ كان قد أخبرَهُما توًّا بأنَّني رُبَّما لا أعيشُ عبْرَ تلكَ اللَّيلة.

أغمضتُ عينيَّ بِضَجَر، ولكنْ من خِلالِ الضَّباب سَمِعتُ بابا يقول: «لن تموتَ، إمَّا. لَن أدَعَها.»

«إنَّها في يدَي الله، ڤِك. سيؤولُ الأمرُ إلى الخير!» انجرَفتُ بعيدًا إلى وَقعِ صَوتِ ماما، فيما انحسرَت مَوجةُ الألَم أمام أمواجِ الإعياء التي اكتنفَتني.

وبجانِبي انتظرَ والِداي وصلَّيا.